الفصل الرابع

القدس تحت احتلال الفرنجة

أميمة الشريف

مدينة السلام، لم تنعم به منذ فجر التاريخ.

حين تولى الدعوة إلى محاربة المسلمين، ومهاجمتهم راهب فرنسي يدعى «بطرس الناسك»، بعد عودته من زيارة إلى بيت المقدس، مدفوعًا إلى ذلك بالفكرة التي روَّج لها البابا «أربانوس الثاني»، وأخذ يخطب في الجماهير المسيحية الغربية ليستنهضهم في سبيل استعادة قبر السيد المسيح، وتخليصه من أيدي «الكفار»، واعدًا الجماهير بالغفران جزاءَ عملهم، طلب مساعدة لويس السادس ملك فرنسا، ولم يذكر التاريخ، قبل ذلك، أن طلب البطريرك مناصرة الدولة للقيام بحرب تحت شعار ديني[1].

تخليص قبر المسيح

ظل البابا أربانوس يخطب في جماهير النصارى في أوروبا، ويلهب حماسهم، مستخدمًا عبارات تهيِّج مشاعرهم الدينية، فيقول لهم إنه «أثناء رحلته للقدس، رأى قبر السيد المسيح مهانًا، ومحتقرًا، وأن زواره مضطهدون، وأنه من الواجب على النصارى أن يسيروا على طريق المسيح، ويقدموا أنفسهم، وأموالهم». وقد عقد أربانوس مؤتمرًا في جنوب فرنسا، اجتمع فيه الفرنجة من سائر أنحاء أوروبا، أطلق فيه البابا صيحاته لمحاربة المسلمين، تحت شعار «الله يريد ذلك»! وقد خرج للقتال، تحت قيادة بطرس الراهب، رجالًا، ونساءً، وأطفالًا، في زحفٍ حاشدٍ إلى بيت المقدس سالكين الطريق الذي سار فيه الإمبراطور قسطنطين أثناء سيره لبيت المقدس، لكنهم لم يتمكنوا من دخولها، فقد اشتبكوا مع السلاجقة الأتراك، الذين هزموا الفرنجة، وأعادوهم هاربين إلى حيث أتوا[2].

بعد حوالي أربع سنوات من إطلاق البابا صيحته، وصل الفرنجة إلى بيت المقدس، وكان الوالي عليها نائبًا عن الخليفة الفاطمي، قائدًا يدعى افتخار الدولة، الذي حوصر وعسكره، طيلة أربعين يومًا، دافع فيها الجنود العرب عن المدينة ببسالة منقطعة النظير، ورفضوا الاستسلام للغزاة، إلا أن الفرنجة تمكنوا من دخول المدينة في أحد أيام شهر يونيو/ حزيران ١٠٩٩ م، وفور دخولهم بيت المقدس عاثوا فيها فسادًا[٣].

مبررات احتلال بيت المقدس

سرعان ما اتضح الأمر، وبانت حقيقة أن من جاءوا متسترين براية المسيحية، يحملون الأناجيل باسم الصليب، يخفون وراء ذلك أحقادًا، وأطماعًا، تنأى عن ذلك كثيرًا، ولا تمت لادعاءاتهم بأي صلة، فلم تكن حملتهم في حقيقتها إلا نوعًا من الاستعمار، الذي يمكّنهم من نهب خيرات، وثروات الشرق[٤].

ليس ذلك فحسب، وإنما جاء الفرنجة انتقامًا من الدولة الإسلامية، التي امتد نفوذها، واتسعت رقعتها، وشملت فتوحاتها معظم أراضي شرق البحر الأبيض المتوسط، الذي يعرف في أوروبا بـ «الليفنت» إلى شمال إفريقيا، وبلاد المغرب العربي، التي كانت تحت الحكم البيزنطي، وامتد نفوذ المسلمين حتى وصل إلى جنوب إيطاليا، وصقلية، ومدينة جنوة، الأمر الذي أثار أحقاد الفرنجة، وزاد طمعهم في استعادة تلك المستعمرات واستخلاصها لهم، مرة أخرى. وكان للدعوة الدينية أثرٌ كبير في حشد عدد من المقاتلين، الذين يرغبون في الفوز الديني، والذين تمت دغدغة مشاعرهم الدينية بما أثاره أربانوس، وكان من المحتمل ألاَّ يستجيبوا للدعوة، لو لم يتم إلباسها ذلك الثوب الديني، فمن المؤكد أن من ضمن تلك الحشود من جاء طمعًا في الغفران، حقًّا[٥].

راح الفرنجة يتوسعون في أرجاء المشرق، ولم يكتفوا باحتلال القدس، مما يدحض مزاعمهم، فلو أن الأمر كان خالصًا لوجه الدين، لما برحوا القدس ـ التي بها قبر المسيح ـ بحثًا عن غيرها من الأراضي والخيرات العربية، التي أخفوا نواياهم الحقيقية تجاهها[٦].

لم يكن المسيحيون، في القدس، في حقيقة الأمر، مضطهدين، بينما اتسمت حياتهم في ظل دولة الإسلام بالسلام والصفاء، فكانوا إخوانًا، لهم الحق في ممارسة حياتهم، وعباداتهم، بحرية وتسامح تام، متمتعين بحقوقهم المدنية، بلا أي نقص أو تدخل، وقد عبَّر عن ذلك جمع من الكتاب والمؤرخين، ومنهم الأستاذ/ رئيف ميخائيل الساعاتي، والأستاذ/ سيد أمير علي، فضلًا على المقدسي، الذي وصف رحلته إلى بيت المقدس قائلًا: إنه وجد النصارى فيها من «أصحاب الكلمة العليا»، ناهيك عمَّا جاء على لسان غاي لوسترينج في مقدمة كتابه، فقد ورد فيها أن المسيحيين لم يكونوا، أبدًا، مضطهدين في بيت المقدس[٧].

يرى هري الجرسون فوسديك أن الأسباب الحقيقية وراء دعوة البابا أربانوس لغزو بلادنا تكمن في حقن الدماء المسيحية – المسيحية في أوروبا، فقد استفحل الخلاف في أوروبا، فيما بين الطوائف المسيحية المختلفة، وازداد الاقتتال بينهم، مما أسفر عن وقوع الآلاف من القتلى اللاتين، وبيع الآخرين كعبيد[٨].

من الأسباب الحقيقية، أيضًا، لحملات الفرنجة ما أشيع من أن من يستولي على أي مدينة من الأمراء يصبح صاحبها الشرعي، فطمع زعماء الحملة في الاستيلاء على البلاد المفتوحة، وبسط سلطانهم عليها، وقد تردد هؤلاء في

شكل الاحتلال، مما دفعهم لإلباسه ثوب الدين، إلا أن الأمر كان يبدو محيِّـرًا حقًّا في شأن كنيسة القيامة، وأماكن العبادة، فلمن تؤول ملكيتها، هي والأماكن المحيطة بها؟[٩].

كما أن الصراع الدائر بين كل من الفرنجة القادمين من أوروبا، وبين الدولة البيزنطية المسيحية، في الشرق، كان دافعًا لمحاولة الطرفين للاستيلاء على الأراضي العربية، وكان كل طرف منهما يقدِّر جيدًا أهمية القدس، فيحرص على الاستيلاء عليها، وبسط نفوذه عليها، مما يؤكد الطبيعة الاستعمارية لتلك الحملات[١٠]. كما هاجرت أعداد كبيرة من الفرنجة لبلاد العرب، هربًا من الفقر الذي عانوه، زمن الأمراض والأوبئة التي تفشت في بلادهم، وقد سمعوا بأن بلاد الشرق تحتوي على الكثير من الخيرات، التي طمعوا في الحصول عليها، والمتاجرة بها في أوروبا[١١].

كما يؤكد المؤرخون أن حملات الفرنجة استهدفت إقامة مملكة لاتينية على الطراز الغربي في مدينة القدس، والتخلص من ثقافتها العربية، فضلًا على القضاء على المسيحية الأرثوذكسية المنتشرة في الشرق، في مدينة المسيح، ناهيك عن الحيلولة دون الاقتتال فيما بين الأمراء في أوروبا، عن طريق شغلهم بمحاربة المسلمين. فيما يرى آخرون أن هدف حملات الفرنجة لم يكن إلا تجاريًّا فحسب[١٢].

لكن، ورغم تعدد الأسباب التي ساقها مؤرخو المرحلة ومفكروها، فإن جميعها يؤكد بأن ثمة أهدافًا استعمارية دفعت هؤلاء الفرنجة للتوجه إلى منطقتنا العربية، وفي القلب منها المدينة المقدسة.

غزوات على القدس

في عام ١٠٩٩م، وفور وقوع مدينة القدس في أيدي الفرنجة، قاموا باقتحام المسجد الأقصى، وارتكبوا فيه مذبحة مروعة ضد الأهالي، الذين احتموا به، راح ضحيتها عشرات الألوف من أهالي المدينة المقدسة، وسرقوا ونهبوا ما وقع أمامهم من قناديل المسجد، والتنور الخاص به، وارتكبوا من الجرائم الوحشية ما تقشعر له الأبدان، وقد اختلف المؤرخون في تحديد عدد القتلى، فالبعض رأى أنهم وصلوا إلى مائة ألف قتيل، فيما قدرهم آخرون بسبعين ألفًا فقط[١٣].

في تلك الأثناء، قرر الوزير الأفضل الفاطمي، أن يستعيد بيت المقدس، فأرسل حملة كبيرة من الجنود إلى فلسطين، حتى وصلت إلى مدينة عسقلان، التي اتخذتها الحملة مركزًا لها، وانتظرت الحملة هناك، حتى تصل بقية الإمدادات، وأثناء فترة انتظارها هاجمها الفرنجة، وأوقعوا بها الهزيمة، فلم تفلح في استعادة القدس[١٤].

قام الفرنجة بتحويل معظم مساجد القدس إلى كنائس، ومنها مسجد قبة الصخرة، الذي أقاموا عليه كنيسة عرفت باسم «كنيسة هيكل الرب»، كما حوَّلوا المسجد الأقصى إلى سكن لفرسان المعبد، فيما بنوا على جزء منه كنيسة أُخرى[١٥]، فضلًا على أنهم عمَّروا كنيسة القيامة، وجمعوا المعابد المتفرقة في كنيسة واحدة، على طراز الكنائس الغربية[١٦].

وهم في ذلك يحاولون تغيير معالم المدينة، إضفاء الطابع الغربي على مدنها، وعمارتها، فضلًا على سكانها، فقد أبعدوا من المدينة أهلها حتى يحل محلهم الأوروبيون القادمون، فتظهر المدينة كما لو كانت مدينة لاتينية، منذ وجدت[١٧].

المملكة اللاتينية في القدس

بدأ الفرنجة في تأسيس مملكتهم اللاتينية، في القدس، وحدث نزاع فيما بين البابا في أوروبا والكنيسة التي تريد أن تفرض سيطرتها على الكنيسة الشرقية، وبين بيزنطة التي تطمح لاستعادة مستعمراتها في الشرق. وقد أرسلت الكنيسة الغربية مبعوثًا بابويًّا، هو حاكم بيزا «ديمبرت» ليكون حاكمًا لمملكة بيت المقدس، وقد قام، على الفور، بعزل البطريرك الشرقي، وتولى هو منصبه، فضلًا على قيامه بطرد المسيحيين المحليين، والشرقيين، ومنهم اليونانيون، واليعاقبة، والنسطوريون، والأرمن، من كنيسة القيامة، وسائر كنائس المدينة المقدسة[١٨].

تراجع الفرنجة عن فكرة إنشاء مملكتهم في بيت المقدس على أساس ديني، واتفقوا على أن يحكمها حاكمٌ علمانيٌّ، واختاروا جودفري دي بويون، الذي رفض في البداية، إلا أنهم أجبروه على الموافقة، ولقب نفسه بـ «حامي القبر المقدس» أو «حامي بيت المقدس» مما يعني أن تلك الدولة كانت خليطًا أو وسطًا بين السياسة، والدين، فقد أشرفت عليها الكنيسة[١٩].

عاد معظم الجنود الفرنجة إلى بلادهم تاركين في مدينة القدس جيشًا هيكليًّا قليل العدد، كما هرب من المدينة أهلها، ناجين بأنفسهم من المذابح وجرائم القتل التي عانوا منها، متجهين إلى المدن المجاورة، فضلًا على قيام الغزاة بطرد المسيحيين من أهل المدينة وباقي المسيحيين الشرقيين من سكانها؛ لأنهم شكوا في تعاونهم مع المسلمين في محاربة الفرنجة، وبذلك أصبحت شبه خاوية من الأهالي، فلم يقطنها سوى بضع مئات، وتحولت إلى مدينة خربة، يتجمع المقيمون فيها في حي البطريرك، حول القبر المقدس، بحثًا عن الأمان[٢٠].

جاء ارتكاب الفرنجة لتلك المجازر، في المدينة المقدسة، وطردهم لأهلها في إطار خطة منظمة، فقد هدفت إلى تغيير ديموغرافية المدينة، وتركيبتها السكانية، استكمالًا لما قاموا به من تغيير معالمها العمرانية، وطرازها، لمحو طبيعتها، وإظهارها بمظهر غربي، محاولين بذلك إرساء دعائم وجودهم في القدس إلى الأبد، لكنهم عندما بدأوا في تنظيم أمور مملكتهم اللاتينية في القدس واجهتهم المشكلة السكانية، حيث لم يكن عدد مواطني المدينة يكفي لملء أحد شوارعها. فعمل المستعمرون على تشجيع أهالي المناطق المجاورة على الهجرة إلى القدس، بالترهيب أو الترغيب، فهاجر إليها النصارى من أبناء وادي موسى، ومن عمان، والسلط، والبلقاء، وأسكنوهم في حي خاص، أسموه حي الشارقه، تمييزًا لهم عن القادمين من أوروبا[٢١].

نجح بلدوين في أن يصل عدد سكان المدينة المقدسة إلى نحو ثلاثين ألف نسمة، وبدأت المدينة تشهد تطورًا ملحوظًا، فقد زادت الحركة بين الشرق والغرب، كما أحدثت زيادة حركة الحجيج والزوار للأماكن المقدسة رواجًا كبيرًا[٢٢].

أقام الفرنجة في القدس نمطًا للحياة على الطراز الغربي، فمثلًا استبدلوا بمحكمة الشريعة الإسلامية ثلاث محاكم مدنية، وجنائية، وهي: المحكمة العليا الخاصة بالنبلاء، وثانية للعامة من أبناء الفرنجة، فيما تختص المحكمة الأخيرة الأدنى منزلة بأهل البلاد من العرب، وتولى أمرها مسيحيون محليون، وبالنسبة لشؤون الكنيسة، اختار بلدوين بطاركة ارتضوا دورًا ثانويًّا في حكم المملكة، واختص البطريرك بالسلطة التشريعية، والقضائية في الحي المسيحي، وابتداءً من سنة ١١١٢م أصبح بلدوين حاكمًا علمانيًّا لبقية مملكة اللاتين في القدس[٢٣].

عاشت مملكة الفرنجة في مدينة القدس، وازدهرت لمدة أربعة عقود، إلا أن الانقسامات الداخلية والانقلابات بدأت تنهش دولتهم. وبحلول عام ١١٥٢م، اشتد الخلاف بين الملك بلدوين الثالث، وأمه ميسلندة، فقامت الأخيرة بتحصين مدينة القدس، واستعدت لمحاربته، وبَدَتْ نذر الحرب الأهلية وشيكة، لولا تدخل المواطنين، الذين أجبروها على التسليم، كانت هناك، أيضًا، انقسامات أخرى لدى فرسان الداوية والإستباريون، الذين رفضوا الخضوع لسلطة أي من البطريرك، أو الملك، وقاموا ببعض التصرفات التي عبرت عن ازدرائهم للكنيسة، والبعد عن تعاليم وأخلاقيات المسيح، فقاموا ببناء برج أعلى ارتفاعًا من كنيسة القبر المقدس، وتعمدوا إعاقة القداس بها، واستمرت الانقسامات والصراعات فيما بين الفرنجة، فكل يسعى للانفراد بالسلطة[٢٤].

مؤرخو الفرنجة يصفون فظائعهم

أرَّخ مؤرخو الفرنجة، لتلك الفترة، التي قامت فيها مملكتهم في المدينة المقدسة، وما ارتكبوه من وحشية ودمار فيها، ففي رسالة لأحدهم إلى البابا، أخبره بأن جنودهم كانوا يخوضون حتى الركب في دماء المسلمين. أما وليم الصوري، المؤرخ الفرنجي، فإنه وصف المدينة المقدسة بأنها كانت مخاضة واسعة من دماء المسلمين، كما وصف أحد الكهنة مشاهد القتل، والجثث، والأشلاء المتناثرة متألما لما رآه.

أما المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون، فإنه كتب في كتابه «حضارة العرب»، أن الأوروبيين كانوا يطاردون العرب في الشوارع والمنازل، وكانوا يخطفون الأطفال، ويذبحون الأولاد، والشبان والشيوخ، ويقطعون جثثهم، بالإضافة إلى مشاهد القتل الجماعي، حيث كانوا يشنقون الناس في مجموعات، بعضهم أمام بعض، وأن أحد أمراء الفرنجة، ويدعى بوهيموند، أحضر الأسرى من أهالي مدينة القدس العرب، وقام بتجميعهم في برج النصر، حيث أمر بضرب رقاب الشيوخ، والعجائز، أما الرجال والشبان فقد أمر ببيعهم في سوق الرقيق[٢٥].

أدى كل ذلك إلى ازدياد الحقد والكراهية لدى العرب لهؤلاء الغزاة المتوحشين، ولم يحاول الفرنجة إزالة أسباب تلك المشاعر، وإنما بقيت دولتهم في القدس، كيانًا غريبًا معاديًا، يزيد في كل يوم من عدوانه على أهالي البلاد، وتركزت أعمال الفرنجة في الاهتمام بتنظيمهم العسكري، والاستعداد الدائم لمحاربة العرب، ولم يهتموا بشيء، سوى ببقائهم في البلاد، فيما لم يسعوا، أبدًا، للتعرف أو الاستفادة من الثروات الفكرية، والتراث الحضاري لبلاد العرب، والمدينة المقدسة، الأمر الذي جعل مملكة الفرنجة غير مستقرة، بل مهددة دائما بالزوال[٢٦].

النضال العربي لاسترداد القدس

خرج صلاح الدين من مصر، في اتجاه فلسطين، ليحقق حلمه في توحيد صفوف المسلمين، بزعامته، في عام ١١٧٥م، وما إن وصل إلى ساحل مدينة عسقلان، حتى وجد جنود مملكة بيت المقدس في انتظاره، ولحقت به هزيمة شديدة، عاد على إثرها أدراجه، لكنه في السنة التالية أعاد الكرَّة، واستعاد بعض أجزاء المملكة، بعد أن هاجم حصونها، فلجأ الملك بلدوان الرابع، ملك المملكة اللاتينية في بيت المقدس، يسعى إلى طلب الهدنة التي تم عقدها في ١١٨٠م[٢٧].

تم تجديد الهدنة، فيما بين صلاح الدين وريموند، في العام التالي (١١٨١م)، واستمرت سارية، إلى أن نقضها أحد فرسان مملكة بيت المقدس، ويدعى رينو ديشانيون، أو أرنولد[٢٨]،الذي هاجم طرق حجاج المسلمين، أثناء رحيلها

للحج من مصر، مما أثار حفيظة المسلمين، وقائدهم صلاح الدين، فقام بإعداد العدة لمقاتلة الفرنجة، وخرج من القاهرة في عام ١١٨٢م، متجهًا لقتال الفرنجة، عازمًا على تحرير بيت المقدس، وما إن وصل إلى الكرك، حتى أغار على حصون الفرنجة، مما جعل أرنولد يطلب الصلح، فمنحه صلاح الدين الهدنة، لانشغال الأخير حينها بضم وتوحيد الدويلات العربية المجاورة، حتى يمكنه غزو الفرنجة، وتحقيق هدفه بتحرير القدس[٢٩].

دفاع العرب عن القدس

بعد أن اطمأن صلاح الدين إلى توحيد كلمة أمراء المسلمين تحت زعامته، وقبولهم محاربة الفرنجة معه، أصر على الجهاد، وإلحاق الهزيمة بالغزاة.

وفي تلك الأثناء، ساد دولة الفرنجة انقسام جديد، فقد توفي ملكها بودان الخامس، وانتقل ملكه إلى أمه، التي تزوجت من أحد الفرسان القادمين من أوروبا، وتوجته ملكًا على الفرنجة، مما أرضى الفرسان، والداوية، وبعض رجال الدين، إلا أن أمير طرابلس كان يطمع في أن يصبح ملكًا على الفرنجة، ومن ثم فقد ناصبهم العداء، وتآمر مع صلاح الدين ضد مملكة الفرنجة في بيت المقدس، وكان له دور عظيم في فتحها، وقد جمع صلاح الدين الجند من الجزيرة، ومصر، والشام، حتى صاروا قوة هائلة، وأخذ في فتح البلدان المجاورة، ودك حصونها، إلا أن الفرنجة استشرفوا الخطر القادم عليهم، وحاولوا أن يدرؤوه باتحادهم، وأنَبوا أمير طرابلس، وهددوه بالحرمان الكنسي، مما اضطره للانضمام إليهم، واشترك في تلك المعركة جميع أُمراء الفرنجة، عدا بوهمند الثاني، أمير أنطاكية، وتجمع منهم جيش قوامه خمسون ألف جنديٍّ، حملواءا الصليب.

في ربيع عام ١١٨٧م، اجتاحت قوات صلاح الدين قلعتي الكرك، وكراك دي مونريال، وبعد شهرين بدأوا في قتال الفرنجة، فيما احتشدت القوات المنطلقة من دمشق نحو بحيرة طبرية، والتي سميت بجيش الشام الموحد، الذي ضم قوات من دمشق، وحلب، والموصل، والتقى به جيش من مصر بقيادة الملك العادل وسار الجيشان تحت لواء صلاح الدين، حتى وصل إلى تل عشترة، وفي شهر مايو، أي العام نفسه (١١٨٧)، أبادت تلك القوات فصيلة كبيرة من فرسان الفرنجة، وقتلوا القائد الأكبر لجماعة الإسبتاريون روجيه دي مولان[٣٠].

كانت قوات المسلمين بقيادة صلاح الدين تضم اثني عشر ألف فارس، من فرسان المشاة، بالإضافة إلى عدد كبير من رجال الاحتياط، والمتطوعين، فيما حشد الصليبيون اثنين وعشرين ألفًا من الفرسان والجنود، فضلًا على عدد كبير من المتطوعين، ثم ازداد عدد قوات جيش صلاح الدين بعدد من المتطوعين من مصر، والشام، وجميع أنحاء الدولة الأيوبية، حتى بلغ عدد القوات ما يزيد على الستين ألفًا، زحفوا عابرين نهر الأردن، جنوبي طبرية، حتى وصلوا في اليوم التالي إلى كفر سبت، جنوب غربي طبرية، واستولوا عليها، دون اشتباك مع الفرنجة، مما مكنهم من منع الفرنجة من بلوغ الماء، واستولوا على عيون الماء، واستخدموها، كأسلحة، بتعطيش الفرنجة، وأحرقوا الأعشاب، كما أشعلوا النيران، مما أثار الرعب في قلوب أعدائهم الفرنجة، وأجبروهم على الاشتباك، وقد استخدم صلاح الدين حيلة حربية، جر الفرنجة عن طريقها إلى السهل الواقع بين لوبيا وحطين، وشن هجومًا، فحاصرت قوات المسلمين تلال حطين، التي قفز إليها الفرنجة، وعندما حل المساء توقف القتال، الذي استمر في اليوم التالي (٤ يوليو/ تموز ١١٨٧م)، وكان الحر شديدًا، وفي ظل نقص مياه الشرب، لف فرسان الفرنجة سحب الدخان

المتصاعد، والتحم الجيشان على بعد ميلين من حطين، فأهلك جيش صلاح الدين الفرنجة، وقتل منهم عددًا كبيرًا، وجرح آخرين، برماح وسيوف المسلمين، واستسلم الآلاف، فوقعوا في أسر المسلمين[٣١].

تقدم أمير طرابلس، ريمون الثالث، وهو قائد الفرسان، بأمر من ملك مملكة بيت المقدس غي دي لوزيان، وزحزح بهجومه قوة من جيش المسلمين، كان يقودها تقي الدين عمر، فظن الفرنجة أنهم أحدثوا بذلك ثغرة في جيش صلاح الدين، واندفعوا فيها، فحاصرهم جيش صلاح الدين، وقامت من الطرفين معركة، استمرت طيلة سبع ساعات متوالية، سقط خلالها من الفرنجة الآلاف بين قتيل وجريح، ووقع ملك بيت المقدس نفسه في الأسر، بالإضافة إلى عدد كبير من القادة والبارونات، قدر عددهم بمائة وخمسين من الفرسان، منهم أرناط رينالد، صاحب الكرك، الذي قتله صلاح الدين، ولم ينج من الفرنجة إلا عدد قليل، فروا هاربين إلى صور ليحتموا وراء أسوارها.

مُنِيَ الفرنجة بهزيمة ساحقة، وفر أمير طرابلس إلى بلاده، حيث مات بعد ثلاثة أيام، فيما فتح صلاح الدين بعض المدن مثل عكا، ومجدل الصادق، ويافا، والناصرة، لكنه أبى أن يدخل القدس شاهرًا سيفه، فأرسل لمفاوضة أهلها، ليسلِّموا المدينة، و لما رفض المقدسيون طلبه، سار إليهم في ستين ألف جندي، وحاصرها، وأخذ يطوف حول سور المدينة، بحثًا عن أضعف مكان فيه ، نظرًا لمناعته وقوته، ونصب عليه المنجنيقات من جهة الشمال، وتمكن الجند من نقب السور، فاضطر البطريرك هرقل لتسليم المدينة المقدسة، طالبًا الأمان للفرنجة، ودخلها صلاح الدين، وجنوده فاتحًا، في ٢٧ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، وسمح للفرنجة بمغادرتها، بعد أن دفعوا الجزية، وقد دفعها بنفسه عمن لا يستطيع منهم دفعها، وأظهر في معاملة الأسرى والجرحى من التسامح ما يحمده له الغرب حتى الآن، وجعلهم ينسجون حوله العديد من الأساطير، حتى أنهم أوصلوه إلى مراتب القديسين[٣٢].

القدس بعد الفتح الصلاحي

احتفل صلاح الدين بدخول القدس، وأسماه « الفتح الأكبر»، ودعا مندوبين من كل أنحاء البلاد الإسلامية، ولم يتخلف أي شخصية خاصة العلماء، والمتصوفة، فدخلها مع ما يزيد على عشرة آلاف عمامة، وأخذوا يهنئون القائد بالنصر، بين جموع الشعراء، والمنشدين، وأرسلت رسائل الفتح إلى كل بلاد الإسلام[٣٣].

فور الانتهاء من الاحتفالات، عمل صلاح الدين على إعادة الطابع الإسلامي للمدينة، والذي غيَّره الفرنجة، فأمر بإظهار قبَّة الصخرة، بعد أن غطاها الفرنجة أيام احتلالهم للمدينة، وحينما ظهرت قام بنفسه بغسلها بماء الورد، ورفع الصليب الذي وضعوه عليها، كما أزال النقوش والآثار النصرانية من عليها، فضلًا على قيامه بتنظيف المسجد الأقصى، وأمر بتجديده، وإعادة إعمار محرابه، واهتم صلاح الدين بإعادة إعمار ما خرَّبه الفرنجة في مدينة القدس، وأقام فيها المستشفى المعروف بـ «البيمارستان» ونقل إليها الأدوية، والأطباء، حتى يتم تجهيزها لاستقبال المرضى، ومن أهم الأطباء الذين عملوا فيها رشيد الدين بن علي الصوري، وأنشأ الأيوبي، أيضًا، المدرسة الصلاحية، ومدرسة الشافعية، وثالثة للفقهاء، ورباط للصلحاء الصوفيين، عند باب الأسباط، ووقفها ضمن أوقاف بيت المقدس، في ١٣ رجب ٥٨٨ هـ[٣٤].

قام صلاح الدين، أيضًا، بتعمير وتجديد سور مدينة القدس، واشترك بنفسه في ذلك، وفي حفر خنادق حول

السور، فضلًا على أنه أسهم مع العمال في نقل الحجارة التي استخدموها، وفي إطار اهتمامه بتعمير المساجد، وسَّع وجدد جامع الجبل، الذي يقع على جبل الطور، شرقي بيت المقدس، كما أمر بتشييد مقبرة باب الساهرة، وفيها عدد من مقابر الصالحين، وتعرف بمقبرة المجاهدين[٣٥].

سمح صلاح الدين، بعد الفتح، لمسيحيي أوروبا، والشرق، بالحج إلى بيت المقدس، كما كانت القدس طريق حجاج المسلمين، القادمين من شمال أفريقيا، المتجهين إلى شبه الجزيرة العربية، في موسم الحج، فضلًا على التجار، الذين يتنقلون بتجارتهم بين مصر والشام، وطلاب العلم، مما أثرى ذلك المدينة، وانتعشت التجارة بها، وتأثرت الحياة الاقتصادية، والاجتماعية لأهلها[٣٦].

بمجرد أن علم البابا أربانوس الثامن بنبأ سقوط مملكة بيت المقدس، في معركة حطين، خر صريعًا، من هول الصدمة، وتولى خلفا له البابا جريجوريوس الثامن، الذي تولى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة. قامت الحملة الثالثة من حملات الفرنجة، التي اشترك فيها كبار الإقطاعيين، والفرسان، من بلدان أوروبا الغربية، وكان من أهم دوافع تلك الحملة المصالح التجارية لدول أوروبا وأطماعها في بلاد الشرق، قاد جيوش هذه الحملة كل من الملك فليب أوغست الثاني، ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد، ملك بريطانيا، وأيضًا فريدريك الأول ملك بربروسَّا، فتحركت الجيوش الألمانية قبل غيرها، في ثلاثين ألفًا من الفرسان والمشاة، ثم تحركت باقي الجيوش، وانتهت تلك الحملة في ١١٩٢م، بعقد صلح الرملة مع صلاح الدين، واحتفظ الفرنجة بموجبه بشريط ساحلي امتد من صور إلى يافا، فيما انفرد المسلمون ببقية بلاد الشام، وفي القلب منها القدس، وسمح صلاح الدين للحجاج والتجار بزيارة القدس[٣٧].

بعد تعمير مدينة القدس، استمر صلاح الدين في نضاله ضد الفرنجة، حتى توفي في عام ١١٩٣م، وبكته المدينة المقدسة، وحزنت عليه حزنًا شديدًا، فهي تذكر له أنه حررها من استعمار الفرنجة، وأعلى كلمة العروبة والإسلام، وأنه أزال آثار العدوان والتخريب الذي أحدثه بها الفرنجة، وعمَّرها وقادها إلى المجد[٣٨].

بعد هزيمة قلب الأسد في الحملة الثالثة من حملات الفرنجة لم يتمكن من دخول بيت المقدس[٣٩].

الضعف والانقسام العربي أضاعا القدس

بعد وفاة صلاح الدين، تولى الملك العادل، الذي عمل على توحيد صفوف الحكام الأيوبيين، في مصر والشام، تحت سلطانه في الفترة ما بين سنة ١٢٠٠م – ١٢١٨م، وفي هذه الأثناء، ونتيجة لإصرار الفرنجة على إعادة احتلال بيت المقدس، قامت الكنيسة في أوروبا بإطلاق صيحاتها، مرة أخرى، لتجهيز حملة فرنجية جديدة، تحت الشعارات نفسها. وفي سنة ١٢٢٨م، وبعد وفاة الملك العادل، تولى الحكم الملك الكامل وبعد فشل الحملة الخامسة من حملات الفرنجة، عقد فريدريك بربروسَّا اتفاقا مع الكامل على الهدنة، التي أنكرها المسلمون في الشام ومصر، واتهموا ملكهم بالتنازل عن بيت المقدس؛ لأنها كانت تتضمن اتفاقًا على أن يتسلم الفرنجة، بقيادة ريتشارد، بيت المقدس، وبيت لحم، ويافا، وعكا، واللد، والناصرة، والطريق، فيما يبقى المسجد الأقصى، وقبَّة الصخرة في أيدي المسلمين، مقابل هدنة تستمر عشر سنوات، وتم تسليم المدينة، وسط أجواء من الحزن الشديد، والاستنكار، في عام ١٢٢٩م، إلا أن هذا الاتفاق لم يرق للبابا، بل إنه وبَّخ الإمبراطور فريدريك على قبوله؛ لأنه في مقابل الحصول على القدس، وعقد الاتفاق، وعد بأن لا يغزو مصر. وفي رأي البابا، فإن القدس وحدها لا تكفي، وهنا، أيضًا، أكد البابا أطماعهم الاستعمارية، التي تتستر بالدين. ومن ثم فقد أصدر قرارًا قضى بحرمان فريدريك كنسيًّا[٤٠].

بقيت القدس في أيدي الفرنجة، منذ تسليمها في ١٢٢٩م، وحتى ١٢٣٩م، وتلك الفترة كانت مليئة بالاقتتال فيما بين حكام الأيوبيين وبعضهم البعض، وانتهز الفرنجة فرصة الخلافات فيما بين العرب، لاستعادة تنظيم صفوف الفرنجة، وتجهيزاتهم، والقضاء على أسباب الضعف في صفوفهم، والتي أدت إلى انتصار المسلمين عليهم، وقام الفرنجة بتحصين المدينة المقدسة، وبناء سورها، الذي خرَّبه الملك المعظم عيسى الذي ولي الحكم بعد صلاح الدين، مخافة أن يغزو الفرنجة المدينة، مرة أخرى، كما دمر المدينة، أيضًا، للسبب نفسه، وفي ذلك الحين، كان الملك الكامل توفي، وتولى بعده أخوه، الملك الناصر داود، وما إن علم داود باستعداد الفرنجة، حتى أنهى الخلاف مع نجم الدين أيوب، وتحالفا على محاربة الفرنجة، واستعادة القدس، واستردادها منهم في ١٢٣٩م[٤١].

في تلك الأثناء، كان الفرنجة شديدي الحرص على احتلال القدس، فيما كان ملوك بني أيوب منهكين بالاقتتال فيما بينهم، طمعًا في السلطان، مما جعل القدس طبقًا شهيًا، على طاولة الاتفاقات، وموضوعًا للمساومات. ومرة أخرى اختلف نجم الدين داود، والي مصر، والناصر داود، حاكم الشام، فاتفق داود مع الفرنجة على تسليم القدس، على أن يكونوا عونًا له على الأول، وبهذا الاتفاق والتسليم تمكن الفرنجة من المدينة المقدسة بلا حروب، وجلسوا فوق الصخرة المشرفة بالخمور، وعلّقوا، مرة أخرى، الصلبان، والأجراس على المسجد الأقصى[٤٢].

استعان نجم الدين أيوب بالخوارزمية (التتر)، واستدعاهم إلى مصر، لمحاربة أهل الشام، وتجمع لذلك أكثر من عشرة آلاف مقاتل، اتجهوا إلى القدس، واستعادوها من أيدي الفرنجة، وأصبحت من أملاك نجم الدين[٤٣].

في ١٢٣٠م، صادق البابا على معاهدات فريدريك مع السلطان الكامل، ومع المسلمين.

في ١٢٤٥ أعلن لويس التاسع، ملك فرنسا، عن نيته القيام بحملة جديدة، ولم يكن البابا متحمسًا هذه المرة، وظل الملك يجمع الأموال من ضريبة العُشر من الكنيسة طيلة ثلاث سنوات، وأبحر في جيش قوامه عشرون ألف جنديٍّ، بينهم ثلاثة آلاف فارس، بعد أن جهَّز المؤن، والحبوب، والخمور، وظل يتفاوض مع مسيحيي الشرق، حتى نهاية مايو آيار ١٢٤٥م، ثم انطلق إلى دمياط، ومنها إلى الإسكندرية، لكن لويس التاسع وقع في الأسر، وانتشر بين جنود الحملة أمراض الملاريا والدوزنتاريا والأسقربوط، وأخلي سبيل لويس التاسع في ١٢٥٠م. وغادر دمياط إلى عكا حيث بقي بها أربع سنوات، ثم دعا إلى حملة جديدة، إلا أن البارونات، والدوقات، والكونتات، والفرسان تجاهلوا دعوته[٤٤].

كتب الفرنجة عن الحملة السابعة، بعد أن مُني فيها لويس التاسع بهزيمة ساحقة، أنه رغم اتشاحها الدين، فقد اتسمت بانحسار الشرف، والتعصب، وضعف الإدراك، ففقدت فاعليتها، وأصبح انهيار حروب الفرنجة أمرًا واقعًا[٤٥].

ظل الفرنجة مصرُّون على احتلال بيت المقدس، وتجهيز حملاتهم للسيطرة عليها. فالمدينة كانت ولا تزال محل أطماع الغزاة، فقد كان وضعها الجغرافي، بالإضافة إلى أهميتها، من الناحية الدينية، والسياسية، والتجارية مصدرًا لجلب الأعداء، وقيام الحروب على أراضيها، فلم ينعم أهلها بالسلام، وإنما ظلوا في حالة من النضال المستمر، حتى لا يتمكن منها المحتلون والغاصبون[٤٦].

كما بقيت مدينة بيت المقدس، وأهلها ، وحكامها في حالة من الجهاد، والاستعداد، لمواجهة الأعداء القادمين،

فقد ظل حلم استعادتها من قبل الفرنجة يراود أوروبا بأسرها، فاشترك في الحملات كل من الإنجليز، والفرنسيين، والألمان، وغيرهم، وقد أحدثت هزيمتهم على أيدي العرب المسلمين صدمة مروِّعة لرجال الكنيسة الغربية، فظلوا سنوات يعملون بدأب على استنفار الجيوش، واستنهاض وإلهاب حماس المسيحيين للإغارة على مدينة بيت المقدس، واحتلالها [٤٧].

كما أن الحكام والقواد العسكريين الغربيين، أيضًا، كانوا يعلمون جيدًا مدى أهمية احتلال بلاد الشام، وخاصة فلسطين، والقدس، على وجه التحديد؛ ولذا نجد أن بونابرت حين كان يعمل على وقف النفوذ البريطاني في المنطقة، وعندما قام باحتلال مصر كان يعي جيدا أنه لا بد من السيطرة على فلسطين، بما فيها القدس، حتى يمكنه البقاء في المنطقة، وتحقيق سياساته، ومنافسة بريطانيا [٤٨].

وعى حكام العرب، أيضًا، أنه لولا ضعفهم وانقساماتهم، التي استهلكت قوتهم، وقواتهم الدفاعية في ساحات القتال ضد بعضهم البعض، كما أثارت مطامع الغير في أراضيهم، وخيراتها، كما فهموا جيدًا أن اتحادهم وتحالفهم كان سببا في تحقيق النصر.

وبعد، فإن هجمتين للفرنجة والصهاينة اتفقتا، أولًا، في أنهما استعماريتان، استيطانيتان، وثانيًا باتشاحهما بالدين، كذبًا وافتراء، وثالثًا في إفراطهما باستخدام القوة الغاشمة، ورابعًا في اعتمادهما على ضعف العرب، وتفرقهم، حتى وصل الأمر ببعض حكام العرب إلى التحالف مع الفرنجة ضد العرب، أشقاء أولئك الحكام، حسب المفترض! ولكن هذا لا يعني أن الهجمة الصهيونية ستُهزم بنفس الطريقة، وستندحر في المدة نفسها التي استغرقها اندحار حملات الفرنجة.

* * *

هوامش الفصل الرابع:

(١) معين حسيب فرج الله، **تاريخ القدس العربية**، بيروت، دار سعاد الصباح للطباعة والنشر، سلسلة دراسات في القومية العربية، ط١، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٧، ص ٣٧.

عبد المنعم ماجد، **صلاح الدين الأيوبي**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٢٣ ، ٢٤.

(٢) **المرجع نفسه**، ص ٢٤.

(٣) **المرجع نفسه**، ص ٢٩ .

عبد الحميد الكاتب، **الفتح الإسلامي، الغزو الصليبي، الهجمة الصهيونية**، القاهرة، مكتبة الأسرة، سلسلة «الأعمال الخاصة»، ١٩٩٨، ص ٨١.

(٤) وجيه أبو ذكري، **القدس عربية عبر القرون**، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، «سلسلة دراسات في القومية العربية ومشكلات الوطن العربي»، ١٩٦٧، ص ١٦ .

(٥) عرفة عبده علي، **القدس مدينة التاريخ والمقدسات**، سلسلة «هوية المكان»(١)، ط١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ٣٠.

(٦) الكاتب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨١ ، ٨٣ .

(٧) فرج الله، **مرجع سبق ذكره**، ص ٧٧ ، ٧٨.

(٨) **المرجع نفسه**، ص ٧٨.

(٩) هادية دجاني، شكيل، وبرهان الدجاني، **الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، أبريل/ نيسان (١٩٩٤)، ص ١٤٨.

(١٠) الكاتب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٩٤ .

(١١) **المرجع نفسه**، ص ٨٤ .

(١٢) عارف باشا العارف، **تاريخ القدس**، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٤، ص ٧١ ، ٧٢ .

سمير جريس، **القدس، المخططات الصهيونية، الاحتلال، والتهويد**، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١، ص ١٨٨ .

(١٣) فرج الله، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨٠ .

ـ سيد فرج راشد، **فلسطين عربية - إسلامية**، سلسلة مطبوعات الهيئة (٦٥)، ط ٢، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(١٤) **المرجع نفسه**، الصفحتان نفساهما.

(١٥) د. أحمد الصاوي، **القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى**، سلسلة كتاب القدس، ط١، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٩٨.

(١٦) فرج الله، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨٠ .

(١٧) موقع إليكتروني: الجزيرة .نت www. Aljazeera.net عرض كتاب: **الحرب المقدسة: الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم**، لكارين أرمسترونج، ط١، بيروت، دار التقدم العربي، ٢٠٠٤.

(١٨) كارين أرمسترونج، **القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث**، دار ألفريد أ. نوب، ١٩٩٦، ترجمة د. فاطمة نصر، د.محمد عناني، القاهرة، دار سطور، ١٩٩٨، ص ٤٥٦.

ماجد، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠.

(١٩) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٢.

(٢٠) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٥٧.

(٢١) علي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٢، ٣٣.

(٢٢) **المرجع نفسه**، ص ٩٠.

(٢٣) أرمسترونج، **مرجع سبق ذكره**، ص ٤٦٢، ٤٦٣.

(٢٤) **المرجع نفسه**، الصفحات ٤٧٧: ٤٧٩.

(٢٥) الكاتب، **مرجع سبق ذكره**، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢٦) أرمسترونج، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧١ .
(٢٧) ماجد، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٨.
(٢٨) المرجع نفسه، ص ١٠٩.
(٢٩) المرجع نفسه، ص ١١١، ١١٢.
(٣٠) الموسوعة الحرة org.arkipedia.www
(٣١) المرجع نفسه.
(٣٢) المرجع نفسه.
(٣٣) ماجد، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠.
(٣٤) المرجع نفسه، ص ١٢٠.
(٣٥) فرج الله، مرجع سبق ذكره، ص ٨٤ .
ـ ماجد، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١ .
(٣٦) العارف، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩.
(٣٧) الموسوعة الحرة، www.arkpedia.org
مراجعة كتاب: الصليبيون في الشرق، ميخائيل زابوروف، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٤.
(٣٨) راشد، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٤.
ـ الكاتب، مرجع سبق ذكره، ص ١١٥، ١٢٨.
ـ علي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤ .
ـ العارف، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥ .
ـ فرج الله، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦ .
(٣٩) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
ـ علي، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ .
(٤٠) فرج الله، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٧ .
ـ علي، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤.
(٤١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
ـ فرج الله، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧ .
ـ العارف، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦ .
(٤٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
ـ راشد، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣، ١٩٥.
(٤٣) أبو ذكري، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.
ـ العارف، مرجع سبق ذكره، ص ٧٥.
(٤٤) الموسوعة الحرة، www.arkpedia.org
(٤٥) فرج الله، مرجع سبق ذكره، ص ٨٢.
(٤٦) أبو ذكري، مرجع سبق ذكره، ص ٧.
(٤٧) العارف، مصدر سبق ذكره، ص ٧٢، ٧٣.
ـ أبو ذكري، مرجع سبق ذكره، ص ٢١.
(٤٨) راشد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩.

obeikan.com